الفصل العاشر

دعائم الاستقلال

الجيش

إنَّ الجيش هو الدعامة الأولى التي شاد عليها محمد علي كيان مصر المستقلة، ولولاه لما تكونت الدولة المصرية ولا تحقق استقلالها، وهو الذي كفل هذا الاستقلال وصانه نيفًا وستين سنة، فلا غرو أن خصه محمد علي بأعظم قسط من عنايته، ومضاء عزيمته، وليس في منشأت محمد علي ما نال عنايته مثل الجيش المصري، ويكفيك دليلًا على مبلغ تلك العناية أن منشأته الأخرى متفرعة عنه، والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش، فهو الأصل وهي التَّبَع. فتقرير محمد علي باشا إنشاء مدرسة الطب مثلًا يرجع في الأصل إلى تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش، وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج، كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة والكساء، واقتضى إعداد الأماكن اللازمة لإقامة الجنود بناء الثكنات والمعسكرات والمستشفيات، واستلزم تخريج الضباط إنشاء المدارس الحربية على اختلاف أنواعها، وكذلك المدارس الملكية كان الغرض الأول منها تثقيف التلاميذ لإعدادهم على الأخص لأن يكونوا ضباطًا ومهندسين، وإرسال البعثات إلى أوربا كان الغرض الأول منه توفير العدد الكافي من الضباط ومن الأساتذة والعلماء والمهندسين ممن يتصلون عن بُعد أو قرب بالأداة الحربية، صحيح أن هذه المنشآت وغيرها كان لها أغراض عمرانية أخري؛ لكن خدمة الجيش كانت أول ما فكر فيه محمد علي.

فالجيش إذن -فضلًا عن مهمته الأولى من الدفاع عن استقلال البلاد- كان أداة لتقدم العمران في مصر، فهو من هذه الوجهة من أجل أعمال محمد علي باشا.

وكل ما بذل من الجهود والنفقات في سبيله قد أصاب حقه وموضعه، فلم يكن عبثًا ولم يضع سدى؛ إذ من المحقق أنه لولا قوة هذا الجيش لضاع الاستقلال الذي نالته

مصر في عهده، ولاستردت تركيا امتيازاتها القديمة في البلاد واتخذتها ولاية تحكمها مباشرة كما تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية، أو لاحتلتها إنجلترا بجيوشها عندما ألبت عليها الدول الأوربية وجردت عليها قواتها البحرية والبرية في سورية وعلى السواحل المصرية، ولو لم يكن هذا الجيش متأهبًا للقتال ذائدًا عن الوطن لاستطاعت إنجلترا أن ترمي الكنانة بجنودها، ولاحتلتها كما فعلت سنة (١٨٨٢م)، حين لم يكن ثمة جيش ولا دفاع، ولا معاقل لحماية الذمار.

مشروع تأسيس الجيش النظامي

أخذ محمد علي باشا يؤسس الجيش المصري النظامي منذ سنة (١٨٢٠م)، وكان الجيش قبل ذلك العهد أخلاطًا من العناصر المفطورة على التمرد والفوضى يطلق عليهم لفظة (باشبوزق) أي الجنود غير النظاميين، ومثل هذا الجيش لم يكن جديرًا بالاعتماد عليه في رفع هيبة مصر والدفاع عن كيانها وتوسيع حدودها، لذلك ما فتئ محمد علي منذ تبوأ عرش مصر يفكر في إنشاء جيش على النظام الجديد.

ولكن الظروف لم تكن تؤاتيه، فكان يؤجل إنفاذ فكرته إلى أن تحين الفرصة المناسبة، وقد لاقى صعوبات كبيرة في تحقيقها؛ لأن الجنود غير النظاميين الذين كان يتألف منهم الجيش القديم كانوا معتادين الفوضى والعصيان، ويكرهون كل نظام.

المحاولة الأولى لتنفيذ المشروع وإخفاقها (سنة ١٨١٥م)

وقد حاول لأول مرة إنفاذ فكرته سنة (١٨١٥م) بعد عوته من حرب الوهابيين، ولكن هذه المحاولة أخفقت وكادت تودي بمركزه لولا أن عدل عنها وأرجأها إلى وقت آخر.

ذلك أنه لما عاد من الحجاز أمر بتدريب فرقة من جنود ابنه إسماعيل باشا على النظام الحديث، وذهب هو لهذا الغرض إلى بولاق (أغسطس سنة ١٨١٥م) وأعلن رغبته في إدخال النظام الجديد في صفوفهم، وصارحهم بأن من لم يذعن لهذا النظام

يعاقب على تمرده، ولما عاد إلى شبرا تذمر الجند من هذه الأوامر وأرجفوا بها، فانتهز بعض رؤسائهم هذه الفرصة ليأتمروا بمحمد علي، ويسعوا في خلعه، وكادت تفلح المؤامرة لولا أن القوم أفضوا باتفاقهم إلى عابدين بك أحد رؤساء الأرناءود وكان قد عاد من الحجاز مريضًا، فتوسم فيه المتأمرون الموافقة على مؤامرتهم وأجمعوا على أن يهاجموا محمد علي في قصره بالأزبكية، فأفضى عابدين بك إلى محمد علي بهذا السر، فبارح قصره وذهب إلى القلعة في منتصف الليل، ودخلها من طريق باب الجبل، وبالرغم من ذلك توافى المتمردون إلى ميدان الأزبكية وتبادلوا وحرس السراي إطلاق الرصاص، فوقعت فتنة تشبه فتنة الجند سنة (١٨٠٧م)، غير أنها كانت أوسع مدى، أعظم خطرًا، فلما لم يجدوا بغيتهم ذهبوا إلى ميدان الرميلة، ومن هناك انحطوا على الأسوان ينهبون ويسلبون (٣ أغسطس سنة ١٨١٥م)، وقد تذرع محمد علي بالحزم والحكمة في معالجة هذه الفتنة حتى أخمدها، وأرجأ النظام الجديد في الجيش إلى وقت حتى يهيئ له وسائله ويبتغي ذرائعه.

رواية الجبرتي

ذكر الجبرتي نبأ محاولة محمد علي إدخال النظام الجديد في الجيش في رواية طويلة نوردها؛ لما فيها من تأييد لما قلناه، وتفصيل لما أجملناه؛ قال في حوادث ٢٥ شعبان سنة ١٢٣٠هـ (٣ أغسطس سنة ١٨١٥م):

«أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان لعمل التعليم والرماحة خارج باب النصر حيث قبة العزب، فرخجوا من ثلث الليل الأخير، وأخذوا في الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود، على طريقة الإفرنج، وذلك من قبيل الفجر إلى الضحوة، ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين إلى المدينة في كبكبة عظيمة، حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية، وداسوا أشخاصًا من الناس بخيولهم، بل وحميرًا أيضًا، وأشيع أن الباشا قصده إحصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد وأوضاع الإفرنج، ويلبسهم الملابس المقمطة، ويغير شكلهم، وركب في ثاني يوم إلى بولاق

وجمع عساكر ابنه إسماعيل باشا وصفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد، وعرفهم قصده، وفعل ذلك بجميع العساكر، ومن أبى ذلك قابله بالضرب والطرد والنفي بعد سلبه حتى ثيابه، ثم ركب من بولاق وذهب إلى شبرا، وحصل في العسكر قلقلة ولغط، وتناجوا فيما بينهم، وتفرق الكثير منهم عن مخاديمهم وأكابرهم، ووافقهم على النفور بعض أعيانهم، واتفقوا على غدر الباشا، ثم إن الباشا ركب من قصر شبرا، وحضر إلى بيت الأزبكية ليلة الجمعة ثامن عشرينه، وقد اجتمع عند عابدين بك بداره جماعة من أكابرهم في وليمة وفيهم «حجو بك وعبد الله أغا صاري، وحسن أغا الأزرجانلي»، فتفاوضوا بينهم في أمر الباشا وما هو شارع فيه، واتفقوا على الهجوم على داره بالأزبكية في الفجر، ثم إن عابدين بك غافلهم وتركهم في أنسهم، وخرج متنكرًا مسرعًا إلى الباشا، وأخبره ورجع إلى أصحابه، فأسرع الباشا في الحال إلى الركوب في سادس ساعة من الليل، وطلب عساكر طاهر باشا فركبوا معه، وأحاط المنزل بالعساكر، ثم أخلف الطريق وذهب إلى ناحية الناصرية ومرمى النشاب، وصعد إلى القلعة، وتبعه من يثق به من العساكر، وانخرم أمر المتوافقين، ولم يسعهم الرجوع عن عزيمتهم، فساروا إلى بيت الباشا يريدون نهبه، فمانعهم المرابطون وتضاربوا بالرصاص والبنادق وقتل بينهم أشخاص ولم ينالوا غرضًا فساروا إلى ناحية القلعة واجتمعوا بالرميلة وقرا ميدان».

ثم ذكر الجبرتي تفاصيل تمرد الجند وانسيابهم في الأسواق ونهبهم الدكاكين والمتاجر وإحداثهم من الشغب والاعتداء على أموال الناس وبضائعهم وإخلالهم بالنظام ما جعل سكان العاصمة يضجون من مساوئهم.

موقف محمد علي إزاء الجيش القديم

قلنا: إن محمد علي باشا قابل هذه الحركة بالحلم والأناة ورجاحة العقل، وقد استغلها لخدمة مشروعه في إنشاء جيش على الطراز الحديث قوامه النظام والطاعة؛ ذلك أنه بادر إلى إظهار استيائه مما أحدثه الجنود المتمردون، وقرر دفع تعويض لجميع

التجار الذين نهبت دكاكينهم، وعهد بتقدير ذلك إلى السيد محمد المحروقي كبير التجار، ودفعت الحكومة فعلًا التعويضات[١] لمن وقع بهم النهب والاعتداء، فلهج الشعب بالثناء على محمد علي باشا وسخطوا على الجنود المتمردين، وكان في هذا العمل أكبر دعاية للنظام الجديد، وأخذ الباشا يهيئ الوسائل لإدخال ذلك النظام، ولكنه لم يبدأ به إلا سنة (١٨٢٠م)، وهذا يدلك على أناته وبعد نظره، وقد مهد لذلك بتشتيت الجنود غير النظامية وإخراجهم من العاصمة حتى لا يكون احتشادهم فيها مدعاة لتمردهم وتجديد الفتن، فوزعهم على الثغور الواقعة على البحر الأبيض المتوسط كرشيد ودمياط، وبعض البلاد القائمة على فرعي النيل، ولكيلا يسبق إلى قلوبهم أنه يقصد تشتيتهم أو معاقبتهم أمر بأن يرافقهم في معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه كطوسون باشا وإسماعيل باشا، ورؤساء جنده مثل محو بك وغيره، وأمر بإقامة ثكنات في البلاد التي أعدها لإقامتهم.

رواية الجبرتي

قال الجبرتي في هذا الصدد: «وفي عاشر محرم سنة ١٢٣١هـ (١٢ ديسمبر سنة ١٨١٥م) رجع الباشا من غيبته من الإسكندرية، وأول ما بدأ به إخراج العساكر مع كبرائهم إلى ناحية بحري وجهة البحيرة والثغور، فنصبوا خيامهم بالبر الغربي والشرقي تجاه الرحمانية، وأخذوا صحبتهم مدافع وبارودًا وآلات الحرب، واستمر خروجهم في كل يوم، وذلك من مكايده معهم، وإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة، فخرجوا أرسالًا، واستهل شهر ربيع الأول سنة (١٢٣١هـ) وفيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا إلى ناحية رشيد، ونصبوا عرضيهما عند الحماد وناحية أبي منصور[٢]، وحسين بك دالي باشا وخلافه مثل حسن أغا أزرجنلي ومحو

(١) يقول «مختار باشا» في كتابه «التوفيقات الإلهامية» ص٦١٥: إنها بلغت نيفًا و١٥٠٠٠ جنيه.

(٢) هي التي يقال لها اليوم: «أبو مندور» من أعمال مركز دسوق، والتي كان لها شأن في وقائع الحملة الإنجليزية سنة (١٨٠٧م).

بك وصاري جله وحجو بك جهة البحيرة، وكل ذلك توطين وتلبيس للعساكر بكونه أخرج حتى أولاده العزاز للمحافظة، وكذلك الكثير من كبرائهم إلى جهة البحر الشرقي ودمياط».

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد علي بالأقاليم: «إنَّ الباشا أمر ببناء مساكن للعسكر الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلات بكل جهة من أقاليم الأرياف؛ لكن العساكر المقيمين بالنواحي لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام في الحر والبرد، واحتياج الخيام في كل حين إلى تجديد وترقيع وكثير خدمة، وهي جمع قشلة -بكسر القاف وسكون الشين- وهي في اللغة التركية المكان الشتوي؛ لأن الشتاء في لغتهم يسمى «قِش» بكسر القاف وسكون الشين، فكتب مراسيم إلى النواحي بسائر القرى بالأمر لهم بعمل الطوب اللبن ثم حرقه وحمله إلى محل البناء، وفرضوا على كل بلد وقرية فرضًا وعددًا معينًا فيفرض على الفرية مثلًا خمسمائة ألف لبنة أو أكثر بحسب كبر القرية وصغرها، فيجمع كاشف الناحية مشايخ القرى، ثم يفرض على كل شيخ قدرًا وعددًا من اللبن عشرين ألفًا أو ثلاثين ألفًا أو أكثر أو أقل، ويلزم بضربها وحرقها ورفعها، وأجلهم مدة ثلاثين يومًا وفرضوا على كل قرية أيضًا مقادير من أفلاق النخل ومقادير من الجريد، ثم فرضوا عليهم أيضًا أشخاصًا من الرجال لمحل الأشغال والعمائر يستعملونهم في نقل أدوات العمارة في النواحي حتى الإسكندرية وخلافها، ولهم أجرة أعمالهم في كل يوم لكل شخص سبعة أنصاف فضة لا غير، ولمن يعمل اللبن أجرة أيضًا، ولثمن الأفلاق والجريد قدر معلوم لكنه قليل».

البدء في تنفيذ المشروع (سنة ١٨٢٠م)

عاد محمد علي إلى تحقيق مشروعه سنة (١٨٢٠م)، فاعتزم فتح مدرسة حربية في (أسوان) لتخريج ضباط الجيش، وكان من الضروري لإدخال النظام الجديد أن يختار ضباطًا ومعلمين على بَصَرٍ بأساليب ذلك النظام، ولا مندوحة أن يكونوا من الأوربيين؛ لأن هذه الأساليب كانت مجهولة في الشرق إلى ذلك الحين، وقد وجد محمد علي عضدًا

كبيرًا في ضباط فرنسي عظيم من ضباط الإمبراطورية النابليونية وهب نفسه لخدمة مصر وتقدمها، وهو الكولونيل «سيف» SEVES الذي عرف بعد ذلك بـ«سليمان باشا الفرنساوي»، فإليه يرجع الفضل الأكبر في معاونة محمد علي ومؤازرته في تأسيس الجيش المصري على النظام الجديد، بحيث صار يضارع أرقى الجيوش الأوربية، وبرهن في ميادين القتال على أنه لا يقل عنها دربة وكفاية.

سليمان باشا الفرنساوي (سنة ١٧٨٧–١٨٦٠م)

هو الكولونيل «سيف» SEVES، وهو فرنسي الأصل، ولد في ليون سنة (١٧٨٧م)[١]، وكان أبوه صاحب مصنع في المدينة، ودخل في مهمة البحرية وحضر واقعة الطرف الأغر، ثم انتظم في سلك الجيش البري وقاتل في حروب نابليون وارتقى في المراتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (أميرالاي)، ولما انتهى عهد نابليون قضي على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية وانقطع للتجارة والزراعة، ثم طلب إلى صديق له وهو الكونت «دي سيجور» السعي لدى شاه العجم في أن يعهد إليه تنظيم جيشه، فنصحه بالذهاب إلى مصر، فجاءها سنة (١٨١٩م).

وقابل محمد علي فأعجب به وعهد إليه تنظيم الجيش المصري على الأساليب الحديثة، فكان له الفضل الكبير في الاضطلاع بهذه المهمة كما تراه مفصلًا في سياق الكلام، وقد اعتنق الإسلام في مصر واختار لنفسه اسم «سليمان» فصار يعرف بـ«سليمان بك».

واشترك في حرب المورة ثم في حرب الشام والأناضول، كما فصلناه في موضعه، وأنعم عليه محمد علي سنة (١٨٣٤م) بالباشوية عقب الحرب السورية الأولى، فعرف من ذلك الحين بـ«سليمان باشا الفرنساوي»، واشترك في الحرب السورية الثانية، وقد عين رئيسًا عامًّا لرجال الجهادية -أي للجيش المصري- واحتفظ بهذا المنصب في

(١) «كادلفين وبارو» «سنتان من تاريخ الشرق» (سنة ١٨٣٩-١٨٤١م) ج١، ص١٦٨.

عهد إبراهيم وعباس إلى سعيد باشا، وتوفي في سنة (١٨٦٠م)، وهو المقام له تمثال في ميدان سليمان باشا بالقاهرة.

المدرسة الحربية الأولى بأسوان

جاء الكولونيل سيف إلى مصر كما قدمنا، فلما أنس منه محمد علي باشا الكفاءة لتحقيق مشروعه أنفذه سنة (١٨٢٠م) إلى أسوان لتكوين النواة الأولى من الجيش، وبدأ في العمل بأن قدم إليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدربهم على أن يكونوا ضباطًا في النظام الحديث، وطلب إلى بعض رجاله أن يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك، فاجتمع لدى الكولونيل (سيف) ألف من هؤلاء وأولئك أخذ يدربهم مدة ثلاث سنوات على فنون الحرب وأساليبها الحديثة، فصاروا نواة الجيش النظامي؛ إذ تكونت منهم الطائفة الأولى من الضباط.

قد اختار محمد علي (أسوان) لتخريج الطائفة الأولى من ضباط الجيش رجاة أن ينفذ مشروعه بعيدًا عن الدسائس والأنظار معًا، ولكي يتم في رهينة وسر دون أن يلتفت إليه الناس، فإذا نجح فالنجاح، وإن خفق لا يكون لإخفاقه رد فعل يزعزع مركز محمد علي، وكان ذلك من دلائل بعد نظره وفراسته، ومما رغبة أيضًا عن القاهرة خشيته أن يكون تعليم التلاميذ على يد ضابط أوربي مثارًا لهياج الخواطر فيها، وخاصة بين الجنود غير النظاميين الذين كانوا ينفرون من كل نظام جديد، ثم ليكون التلاميذ بمنجاة من أسباب اللهو بعيدين عن أماكنه فلا يفسد عليهم الأخلاق الحربية، فاختار لهم كما قلنا مدينة (أسوان)، وأنشأ بها أربع ثكنات فسيحة لإقامتهم ولتكون مدرسة لهم. وقد عنى محمد علي بأمر هذه المدرسة وتنظيمها وإمدادها بما تحتاجه من الأدوات والأسباب، فهي أول مدرسة حربية أنشأها لتكوين الجيش المصري النظامي.

وقد ذكر المسيو فولابل[١] وكلوت بك[٢] أن الكولونيل (سيف) لقي صعوبات كبيرة في تدريب أولئك الشبان على الأساليب الحديثة؛ لأن قوام هذه الأساليب النظام والطاعة المطلقة للرؤساء، والمماليك اعتادوا الصخب والضوضاء والإخلال بالنظام، ولم يألفوا من الحركات العسكرية سوى الكر والفر، فكان النظام والسكون اللذان لا مندوحة عنهما أثناء المناورات والتمرينات العسكرية مما لا يروق لهم. أضف إلى ذلك أنهم لم يعتادوا أن يتعلموا فنون الحرب على ضباط أوربيين (مسيحيين)، فجاشت نفوسهم بفكرة التمرد والعصيان، ودبروا المؤامرات للفتك بالكولونيل سيف على مثال مؤامرات المماليك لاغتيال بكواتهم القدماء، فبينما كان ذات يوم يمرن أولئك الشبان على ضرب النار إذا بأحدهم قد رماه برصاصة كادت ترديه، لولا أنها انحرفت ومرت بجانب أُذنه، وسمع صفيرها، فلم يتزعزع ولم يفقد شيئًا من شجاعته ورباطة جأشه، بل استمر في عمله وأمر التلاميذ بإطلاق النار كرة جديدة.

وحدث مرة أخرى أن نزع تلاميذه إلى العصيان وتهددوه بالقتل، فطلب إليهم أن يبارزوه متعاقبين واحدًا تلو الآخر حتى لا يدنسوا أنفسهم بالخيانة والغيلة، فكان لهذه الشجاعة والبطولة وسعة الصدر تأثير سحري في نفوس أولئك الفتيان الذين مهما يكن ما اتصفوا به من الغدر، فإنهم يقدرون الشجاعة حق قدرها، فبعد أن كانوا ناقمين عليه صاروا من خاصة أوليائه يحيطونه بإعجابهم وإجلالهم، فتمكن الكولونيل (سيف) من إتمام تعليمهم في مدى ثلاث سنوات.

واستمر على هذا النحو إلى أن تكونت من تلاميذه الهيئات الأولى من الضباط.

وقد كان إبراهيم باشا يصحب أحيانًا الكولونيل سيف في أسوان، وكان لوجوده تأثير كبير في حمل الشبان على الطاعة واتباع النظام الجديد.

---

(١) في كتابه «مصر الحديثة» جزء ٢، ص٢٤٩.

(٢) في كتابه «لمحة عامة إلى مصر» ج٢، ص٣١٩.

يؤخذ من البيانات المتقدمة أن أول مدرسة حربية للجيش النظامي هي مدرسة أسوان، وقد ذكر العلامة «علي باشا مبارك»[١] ضمن كلامه عن مدينة أسوان ما يلي: «وعلى نحو ثلثي ساعة من جهتها البحرية قصر وبستان من إنشاء محمد بك لالظ أوغلي سنة (١٢٣٨هـ) مدة إقامته بها من العساكر الجهادية الذين جعل العزيز محمد علي عليهم سليمان باشا الفرنساوي لتعليمهم القوانين الإفرنجية العسكرية، وكان يقرب ذلك البستان قشلاق لإقامة ضباط العساكر، ثم جعل مكتبًا للتلاميذ على طرف الميري».

فالقشلاق الذي ذكره علي باشا مبارك هو المدرسة الحربية بأسوان التي تكونت فيها نواة الجيش النظامي.

التجنيد

وبعد أن توفر العدد الكافي من الضباط أخذ محمد علي يفكر في حشد الجنود وتنظيم صفوفهم، وهنا نشأت صعوبة جديدة، وهي طريقة اختيار الجنود ومن أي الطبقات يحشدهم.

لم يشأ في المبدأ أن يجند الأتراك ولا الأرناءود في النظام الجديد؛ لما فطروا عليه من حب الشغب والنفور من النظام، والرغبة عن الطاعة، فأعرض عنهم، ولم يشأ أيضًا أن يفاجئ المصريين بتجنيدهم حتى لا يثير الهياج في البلاد؛ لأنهم لم يعتادوا التجنيد من عهد المماليك، فخشي إذا هو عجل بحشدهم أن يعدوا ذلك عبئًا جديدًا يثقل كاهلهم فوق أعباء الضرائب والإتاوات التي كانوا ينوءون بها، وخشي من جهة أخرى أن يؤدي تجنيدهم إلى حرمان مصر من قيامهم على الزراعة فتسوء حالة البلاد الاقتصادية وتزداد ضنكًا على ضنك، ففكر أولًا في تجنيد السودانيين من سكان كردفان وسنار، وقد تقدم القول بأن من بواعث فتح السودان تجنيد أهله في الجيش

(١) «الخطط التوفيقية» الجزء ٨، ص٦٧.

المصري، ولقد عهد إلى ابنه إسماعيل باشا وصهره الدفتردار أن يرسلا إليه حشدًا من السودانيين يجمعان له ما وسعهما الجمع، فجاءه منهم نحو عشرين ألفًا وأنفذهم إلى بني عدي[١] حيث بدئ في تدريبهم هناك على النظام الحديث على يد الضباط المماليك الذين تخرجوا من مدرسة أسوان، وأعدت الحكومة لإقامتهم وتدريبهم الثكنات الكافية والمؤن والمستشفيات والأسلحة والملابس، وبذل محمد علي في هذا السبيل كل ما أوتي من قوة والعزيمة والقدرة على التنظيم.

وقد أشار «علي باشا مبارك» إلى هذه الثكنات في كلامه عن بني عدي[٢] بقوله: «وبها أثر قصر كان بناه محمد لاظ أوغلي مدة إقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية أسوان، فلا بد أن يكون هذا القصر الذي بقي أثره إلى حين تأليف «الخطط التوفيقية» (١٣٠٥هـ- ١٨٨٧م) أحد المباني التي أقيمت في بني عدي حينما شرع محمد علي في اتخاذها مكانًا لتدريب الجنود على النظام الحديث، ومحمد لاظ أوغلي الذي يذكره علي باشا مبارك هو كتخدا (وكيل) محمد علي باشا، فهو إذن قد أقام هذا القصر بأمر من مولاه.

على أن تجربة تجنيد السودانيين لم تصادف النجاح المرغوب؛ فإن معظمهم وقع فيهم الموتان لعدم موافقة جو مصر لمزاجهم وصحتهم، ولأنهم لم يطيقوا أعباء الخدمة العسكرية، فأخذ محمد علي يفكر في الالتجاء إلى تجنيد المصريين، وأنشأ ثكنات لتمرين المجندين منهم في «فرشوط» عدا ما أنشأه في أسوان وبني عدي.

وفي (يناير سنة ١٨٢٣م) تألفت الأورط الست الأولى من الجيش النظامي، وجعل المماليك الذين تخرجوا من مدرسة أسوان ضباطًا، ومضت سنة (١٨٢٣م) ثم الأشهر التالية إلى (يونية سنة ١٨٢٤م) في إتقان تدريب تلك الأورط، فاغتبط محمد

(١) بالقرب من منفلوط، وهي التي ذكرناها في الجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» ص٤٢٠، الطبعة الأولى. وتسمى الآن بني عديات.

(٢) «الخطط التوفيقية» جزء٨، ص٩٤.

علي بهذه النتيجة الأولى، وأراد أن يشهد بنفسه مبلغ نجاح مشروعه فأمر بنزول الأورط النظامية إلى القاهرة وعرضها في (الخانكة) وكانوا عدة آلاف من المشاة (البيادة) شاكي السلاح كاملي العدة قاموا بمناورات حربية أثبتوا فيها دربتهم وحسن نظامهم، فأعجب بهم محمد علي واغتبط بنجاح مسعاه، وأنشأ معسكرًا عامًّا للجيش في (الخانكة)[1] كان يحتوي دوامًا من (٢٠) إلى (٢٥) ألفًا من الجنود النظاميين، وصارت الخانكة وأبو زعبل مباءة للتعليم العسكري وما إليه، ففي أبي زعبل أنشئ المستشفى العسكري الأول، ثم مدرسة الطب، وأنشئت المدرسة الحربية للمشاة ومدرسة أركان الحرب في الخانكة.

واعتزم تجربة جنوده النظاميين في ميادين القتال، فأنفذ الأورطة الأولى إلى الحجاز حيث كانت الثورات لا تخمد جذوتها، والثانية إلى السودان، والأربع الأخرى إلى بلاد (الموره) لمحاربة اليونانيين تحت قيادة ابنه إبراهيم باشا.

ومن الحق أن تعترف أن محمد علي لاقى صعوبات جمَّة في تجنيد الأهلين، وحدث بسبب تذمرهم من التجنيد فتن تغلب عليها بالحزم والحكمة؛ ففي سنة ١٨٢٤م (١٢٤٠هـ) جاء القصير مغربي يسمى «أحمد فتن إدريس» قادمًا من الحجاز، فوقعت مشادة بينه وبين عمال الجمرك على مكوس فرضوها على أمتعته، فسار إلى قنا ثم إلى إسنا، وحرض الأهالي هناك على الفتنة، وكانوا مستعدين للهياج لتذمرهم من التجنيد، وانضمت إليه الجموع الصاخبة وسار بهم إلى فرشوط، وكادت تستفحل الفتنة لولا أن الحكومة جردت عليهم القوات الكافية، فشتت جموعهم وطاردتهم إلى الجهات الصحراوية.

وترجع المصاعب في تجنيد الأهالي إلى أنهم كما قدمنا لم يألفوا الخدمة العسكرية ولم يكونوا مكلفين بها في عهد المماليك، وهذا نقص كبير في أخلاق الشعب الحربية؛ فإنه ما من أمة تنزع إلى الاستقلال وتقدس الحرية إلا وتجعل الخدمة العسكرية فرضًا حتمًا

(١) ويسمى معسكر (جهاد أباد) وموقعه بجوار الخانكة، هامش الطبعة الثالثة.

على أبنائها في طبقاتهم كافة، فلما شرع محمد علي في تجنيد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط، ولم ينتظموا في صفوف الجندية إلا مكرهين، فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسرًا إلى المعسكرات، ومن الأسف أنه ما زالت كراهية التجنيد باقية في نفوس معظم طبقات الشعب إلى عصرنا هذا (١٩٣٠م)، فالمتعلمون يكرهون التجنيد ويفرون منه، والسواد الأعظم من الأمة يتحاماه ويمقته، وكل من يطلب للتجنيد يود أن يفتدي نفسه بما يستطيع من المال، ولا يمكن تدارك هذا النقص إلا إذا تقدمت الطبقات المتعلمة وأعطت المثال للطبقات الأخرى في احترام التجنيد والإقبال عليه باعتبار أنه واجب وطني عام، وما لم يتقدم المتعلمون والموسرون إلى الانتظام في سلك التجنيد فلا يجمل بنا أن نلوم الفلاحين على نفورهم منه؛ لأنهم إذ يرون المتعلمين يترفعون عن الخدمة العسكرية، فلهم العذر أن يتوهموا أنها سخرة تبتلى بها الطبقات الفقيرة، وهذا الوهم يفسد الروح القومية والحربية في طبقات الشعب.

ولا يغيبنَّ عنك أن نجاح تجربة تجنيد المصريين في عهد محمد علي وما برهن عليه الجيش من الكفاية والنظام يدل على مبلغ استعداد الأمة المصرية لأن تكون أمة حربية، ويكفيك أن تتأمل في ما كان عليه الجيش من الفوضى والتأخر حينما كان مؤلفًا من الأرناءوط وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية، وكيف استعصى على محمد علي أن ينشئ من تلك العناصر جيشًا نظاميًّا، وكيف انقاد له ذلك حينما اعتمد على المصريين دون سواهم، فألف منهم الجيش الذي تردد ذكره في الخافقين لما ناله من الانتصارات الباهرة في ميادين القتال.

وجد إذن محمد علي صعوبة كبيرة في تطبيع المصريين على نظام التجنيد؛ على أنه وفق في مسعاه بفضل المثابرة وقوة العزيمة؛ لأن الفلاحين بعد أن كانوا متهيبين من التجنيد رأوا الحياة العسكرية أَرْفَه وأحسن حالًا من معيشتهم في القرى طعامًا ولباسًا ومظهرًا، فأخذوا يألفونها ويعتزون بها.

قال المسيو «موريه» MOURIEZ في هذا الصدد: «لما انتظم الفلاحون في صفوف الجيش النظامي ألفوا بسرعة حياتهم الجديدة، وبعد أن كانوا معتادين الذل والمسكنة في قراهم استشعروا تحت راية الجيش بكرامتهم الإنسانية، وأخذوا يفخرون بأنهم جنود محمد علي، ويقابلون غطرسة الترك بمثلها، ولم يقبلوا أن يسموا فلاحين وعدوها تصغيرًا لشأنهم؛ لأن هذه التسمية كانت تشعر (وقتئذ) بشيءٍ من المهانة، ونالوا من الحكومة أمرًا أن لا ينبزهم أحد بكلمة فلاحين».

ولما اتسعت دائرة التجنيد استدعى محمد علي من فرنسا طائفة من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش المصري، فتكونت طوائف الضباط المصريين على يد المعلمين الأوربيين، وأرسل طائفة من الشبان إلى أوربا لإتمام دروسهم الحربية هناك، فعادوا إلى مصر بعد أن حذقوا العلوم والفنون العسكرية، وحلوا في المدارس الحربية محل المعلمين الأجانب، وإذا تأملت في البعثات التي أوفدها محمد علي إلى أوربا وجدت معظم أفرادها قد تخصصوا للفنون الحربية وما إليها من الهندسة والرياضيات.

المدارس الحربية

مدرسة أسوان

قلنا: إنَّ مدرسة (أسوان) هي أول مدرسة حربية أسسها محمد علي باشا على النظام الحديث، وقد أسست مدرسة حربية أخرى في «فرشوط»، ومثلها في «النخيلة» وأخرى في أبار «جرجا».

مدرسة قصر العيني

وأنشئت سنة (١٨٢٥م) مدرسة إعدادية للتعليم الحربي بقصر العيني، كانت تعرف بالمدرسة التجهيزية الحربية، وعدد طلبتها نحو (٥٠٠) تلميذ يعدون لدخول المدارس الحربية والمدرسة البحرية، ثم للمدارس العالية الأخرى «ونقلت إلى أبي

زعبل بعد أن خصص قصر العيني لمدرسة الطب، وقد زارها المارشال مارمون سنة (١٨٣٤م)، فألفى بها من التلاميذ (١٢٠٠) تلميذ»[١].

ويقول المسيو «مانجان»[٢]: إن بهذه المدرسة مكتبة كانت تحوي (سنة ١٨٣٧م) ١٥٠٠٠ مجلد.

مدرسة المشاة بالخانكة ثم بدمياط ثم بأبي زعبل

وجه محمد علي عنايته لتنظيم فرق المشاة (البيادة) في الجيش المصري، وأنشأ لتخريج ضباط هذه الفرق مدرسة حربية في (الخانكة) على أحدث نظام، بلغ تلاميذها (٤٠٠) تلميذ قسموا إلى ثلاثة بلوكات، يتعلمون فيها التمرينات والإدارة الحربية، واللغات العربية والتركية والفارسية، ثم نقلت المدرسة إلى «دمياط» سنة (١٨٣٤م)، وكان ناظرها ضابطًا من مقاطعة البيمونت بإيطاليا واسمه المسيو «بولونيني» BOLOGNINI كان من ضباط الإمبراطورية النابليونية، فاستخدمه محمد علي ورقاه إلى رتبة قائمام، ثم نقلت المدرسة إلى أبي زعبل سنة (١٨٤١م).

مدرسة الفرسان بالجيزة

ذكر «كلوت بك» في كتابه[٣] أن تشكيل فرق الفرسان في الجيش المصري لم يبدأ بحسب النظام الجديد إلا بعد عودة الجيش من حرب المورة؛ ذلك أن إبراهيم باشا قد شاهد في خلال هذه الحرب حسن نظام الخيالة الفرنسيين فأدرك أهمية تنظيم الفرسان، وعلى إثر عودته إلى مصر شرع في تشكيل فرق الخيالة على النظام الأوربي، واستدعى لهذا الغرض عددًا من المعلمين الأوربيين.

---

(١) «رحلة المارشال مارمون» ج٣، ص٣١٢.

(٢) ج٣، ص١٣١.

(٣) «لمحة عامة إلى مصر» ج٢، ص٣٣٤.

أنشئت المدرسة الحربية للفرسان بالجيزة في قصر مراد بك[١]، فحول إلى ثكنة جميلة للفرسان، وتولى تنظيم المدرسة المسيو «فاران» VARIN من ضباط الإمبراطورية النابليونية ياور المارشال جوفيون ساسنير GOUVOIN SAINT CYR، وتلاميذها من الشبان يتعلمون مناورات الفرسان وحركات المشاة، ويلبسون أكسية تطابق ملابس الفرسان الفرنسيين ما عدا القبعة، ويتولى التدريس في هذه المدرسة ضباط لقيادتهم، ومدرسون يدرسون لهم اللغتين العربية والتركية.

وكانت المدرسة تتبع نظام مدرسة «سومور» SAUMUR الحربية بفرنسا إلا بعض تعديلات طفيفة استلزمتها الظروف المحلية، وفيها أساتذة لتعليم اللغة الفرنسية والرسم والمبارزة وترويض الخيل، وفيها رئيس للإدارة الحربية، ويتعلم فيها الطلبة فوق ما تقدم استعمال النفير وسائر ضروب الموسيقى المستعملة في فرق الفرسان، وطلبتها خليط من الشبان المصريين والترك يتخرجون منها ضباطًا لفرق الفرسان، وكان لهذه المدرسة ناظر يقوم على النظام فيها، وله توقيع الجزاءات على من يستحقون العقاب من مرءوسيه، وتوزيع الأغذية والعلف، ويتصل بناظر الحربية ويتبع أوامره.

وقد زار المارشال «مارمون» هذه المدرسة سنة (١٨٣٤م) وكان بها إذ ذاك (٣٦٠) تلميذًا فأعجب بها وكتب عنها في رحلته ما يلي[٢]:

«عندما شاهدت هؤلاء الطلبة في الميدان يقومون بالمناورات خيِّل لي أني أمام طابور من أرقى ألايات الخيالة عندنا، ولئن كان ينقص المدرسة لتصل إلى درجة الكمال بعض دروس في اللغة والرسم وغير ذلك، ولكن مما لا نزاع فيه أنها من جهة تنظيم فرق الفرسان لا ينقصها شيء، فالطلبة يجيدون ركوب الخيل، والمناورات التي يقومون بها تجري بخفة ودقة وإحكام، ونظامهم وهندامهم على أحسن ما يكون،

(١) انظر ما كتبناه عن هذا القصر بالجزء الأول من «تاريخ الحركة القومية» ص١٤٦ و٢١٨ و٣١١.
(٢) «رحلة المارشال مارمون» ج٣، ص٢٨٨.

والروح المعنوية فيهم على ما يرام، فهم جنود بكل معاني الكلمة، وحملة الأبواق يؤدون عملهم بإتقان».

مدرسة المدفعية بطره

شكلت المدفعية النظامية في الوقت الذي نظمت فيه المشاة على الطراز الحديث، وتولى تنظيمها جماعة من الضباط الفرنسيين، وعاونهم في العمل ضباط من المصريين، وفي مقدمتهم الضابط القدير «أدهم بك» (باشا) الذي أسس ترسانة القلعة وتولى إدارة المهمات الحربية، ثم رئاسة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية).

وأنشئت في (طره) مدرسة حربية للطوبجية (المدفعية) تولى إدارتها ضابط إسباني يدعى الكولونيل (الأميرالاي) الدون «أنطونيو دي سيجرا» SEGUERA، وهو الذي عرض على محمد علي إنشاءها؛ لتخريج ضباط المدفعية للجيش المصري، وعرض مشروعه أيضًا على إبراهيم باشا قائد الجيش العام فنال تأييده، ومن ثم أنشئت المدرسة على الوضع الذي اقترحه الميرالاي «سيجيرا»، وقد ذكر العلامة «علي باشا مبارك» هذه المدرسة في كلامه عن (طره) فقال: «وكان بطره مدرسة الطوبجية؛ وهي مدرسة جليلة من إنشاءات العزيز محمد علي، تربى بها جملة من الأمراء برعوا في فنون الطوبجية»[1]. ثم نقل ما كتبه الدوق «دي راجوز» (المارشال مارمون) عنها مما سنذكره في موضعه.

وقد اختير لهذه المدرسة من التلاميذ ثلاثمائة من خريجي مدرسة قصر العيني الإعدادية أخذوا يتلقون فيها الدروس الحربية، واللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكامات، ويتمرنون على المرمى بالمدافع على يد معلمين حربيين، وكان الكولونيل «سيجيرا» نفسه يعلمهم دروس الرياضة والرسم، وقد تقدموا في علومهم وبرهنوا على كفايتهم في الحرب السورية[2]، وتبارت

(١) «الخطط التوفيقية» ج١٣، ص٣٢.

(٢) «مانجان» ج٣، ص١٢٩.

المدفعية الثقيلة والمدفعية الخفيفة في النشاط والجدارة، قال مانجان: وضباط المدفعية المتخرجون من هذه المدرسة متعلمون مثقفون.

ولم يغرب عن بال محمد علي باشا أهمية هذه المدرسة، فأراد أن يرى بنفسه سير التعليم فيها فزارها واختبر شئونها، فأبدى ارتياحه وسروره من أساتذتها وتلاميذها ومعداتها، وكافأ الكولونيل «سيجيرا» بالإنعام عليه برتبة البكوية مع لقب لواء، وألحق بالمدرسة أورطة للمدفعية المشاة وأورطة أخرى للمدفعية الركبان، وأنشئ لها ميدان لضرب النار للجنود والتلاميذ، وضع به أربع وعشرون بطارية من المدافع للتمرين عليها.

وكان للمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب يساعده صيدلي لمعالجة المرضى.

مدرسة أركان الحرب بالخانكة

أنشئت هذه المدرسة بالخانكة بناء على اقتراح عثمان نور الدين باشا بالقرب من المعسكر العام للجيش[١]، وقد ذكرها المسيو «دور» في كتابه عن التعليم العام بمصر[٢] وكلوت بك[٣]، ولم يذكرا تفصيلات عنها، ويسميها رفاعة بك رافع[٤] مكتب الرجال بالخانقاه.

مدرسة الموسيقى العسكرية

قرر محمد علي تنظيم الجيش المصري على مثال الجيوش الأوربية من كل وجه؛ فأمر بإعداد طائفة من الموسيقين لكل ألاي، وأحضر من أوربا ما يلزم الجيش من آلات الموسيقى، وكذلك أحضر المدرسين الأوربيين لتعليم المصريين الموسيقى الإفرنجية الحربية، فأنشأ في (الخانكة) معهدًا لتعليم الموسيقى يسع (١٣٠) تلميذًا

(١) هامش الطبعة الثالثة، معسكر (جهاد أباد) بجوار الخانكة.

(٢) ص٢١١.

(٣) ج٢، ص٥١٠، «لمحة عامة إلى مصر».

(٤) في كتابه «منهاج الألباب المصرية» ص٢٤٧، طبعة ثانية.

تولى التدريس فيه أربعة من الموسيقيين الفنيين، وعين المسيو «كاريه» CARRE مديرًا له، وكانت تدرس فيه أيضًا اللغة العربية على يد أساتذة مصريين.

وقد أبدى التلاميذ المصريون إتقانًا وبراعة ونبوغًا في فنون الموسيقى شهد بها الإفرنج، قال المسيو «مانجان» في هذا الصدد: «إن أولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من السهولة في توقيع الألحان الصعبة من النوتات ما أدهش العارفين بالفن وخاصة الإفرنج الذين اجتذبتهم إلى وادي النيل شهرة محمد علي»[١].

وهذه المدرسة كانت تخرج الموسيقيين الذين يحتاج إليهم الجيش المصري، ولكن الدكتور «كلوت بك» لاحظ في كتابه[٢] أن برنامج المدرسة قام على قاعدة خاطئة؛ ذلك أنه تضمن نقل الموسيقى الأوربية بنغماتها وأناشيدها الأوربية إلى نغمة شرقية لم تتعود الألحان الأوربية، فلم تؤثر في نفوس التلاميذ التأثير الفني المطلوب ولم تتحرك لها قلوبهم، وأن الواجب كان يقضي بإحضار فنانين عارفين بالموسيقى العربية ليؤلفوا منها ومن الألحان الأوربية موسيقى خاصة تتأثر لها نفوس المصريين، ويقول: إن الحكومة في عهد محمد علي ذاته قد ألغت معهد الموسيقى بالخانكة؛ مع أنه خرج عددًا لا بأس به من الموسيقيين القادرين، واستعاضوا عنه بأن جعلوا لكل ألاي من الجيش معلمًا أوربيًّا، ولكن لم يكن من الميسور لمعلم واحد أن يضطلع بهذه المهمة، ولذلك لم تصل الموسيقى الحربية في مصر إلى مجاراة الموسيقى الأوربية.

المدرسة البحرية بالإسكندرية

تكلمنا عنها في الفصل الحادي عشر.

---

(١) «مانجان» ج٣، ص١٣٠.

(٢) «لمحة عامة إلى مصر» ج٢، ص١٢٤.

مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة

رأى محمد علي بثاقب نظره أن إنشاء جيش يحمي الذمار أمر لا قوام له إلا بأن يجد كفايته من السلاح والذخيرة والمدافع في داخل البلاد؛ إذ الاعتماد على جلب السلاح من الخارج يعرض قوة الدفاع الوطني للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الأجنبية، لذلك بذل جهده في إنشاء مصانع الأسلحة في مصر، فأسس قائد المدفعية «أدهم بك» ترسانة القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع، وتولى إدارتها.

وقد حدث في القلعة حريق هائل سنة (١٨٢٤م) امتد إلى مخزن البارود؛ فخرب معظم الترسانة وتخرب نحو خمسين منزلًا من المنازل المجاورة للقلعة، ومات في هذه الكارثة نحو أربعة آلاف نفس[١].

ويقول المسيو «مانجان»[٢]: إن ترسانة القلعة لم تكن شيئًا مذكورًا إلى سنة (١٨٢٧م)، ولكنها عظمت واتسعت أرجاؤها بمضي الزمن، فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين إلى باب الانكشارية الذي يطل على ميدان الرميلة.

وكان بها (٩٠٠) من العمال لصنع الأسلحة، ويصنع فيها كل شهر من (٦٠٠) إلى (٦٥٠) بندقية، تتكلف كل بندقية اثني عشر قرشًا مصريًّا، ويدفع لرؤساء العمال مرتبات ثابتة، أما العمال الآخرون فتدفع لهم أجور يومية.

وكان بها قسم خاص لصنع زناد البنادق، والسيوف والرماح للفرسان، وحقائب الجنود، وحمائل السيوف، وكل ما يلزم لتسليح الجنود من المشاة والفرسان وحلية الخيل من اللجم والسروج وما إليها، وفيها مصنع واسع لعمل صناديق البارود ومواسير البنادق، ومصنع آخر لصنع ألواح النحاس التي تستخدم لوقاية السفن الحربية.

---

(١) «رسالة المسيو دروفتي» المؤرخة (٣٠ مارس سنة ١٨٢٤م) الواردة في وثائق حرب الموره، وثيقة رقم (٦).

(٢) «مانجان» ج٣، ص١٣٢.

معمل صب المدافع

وكان أهم مصانع الترسانة وأكثرها عملًا وأولاها باسترعاء النظر معمل صب المدافع؛ تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع أو أربعة من عيار أربعة وثمانية أرطال، وتصنع فيه أحيانًا مدافع الهاون ذات الثماني بوصات ومدافع قطرها (٢٤) بوصة.

ولا يقل عمال هذه الترسانة عن (١٥٠٠) عامل، وتستهلك فيها كل شهر كمية عظيمة من الفحم والحديد[١].

مخازن البارود والقنابل

أمَّا مخازن البارود والقنابل فقد أعد لها محمد علي مكانًا خاصًّا على سفح المقطم[٢].

رأي المارشال «مارمون» في ترسانة القلعة

وقد زار المارشال «مارمون» ترسانة القلعة سنة (١٨٣٤م) وأعجب بنظامها وأعمالها، وكتب عنها في رحلته ما يلي: «زرت دار الصناعة بالقلعة وعنيت بها فحصًا وتقصيًّا، فألفيت البنادق التي تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع في معاملنا، وهي تصنع على الطراز الفرنسي، وتتخذ فيها الاحتياطات والوسائل التي نستعملها نحن لضمان جودة الأسلحة، وتتبع النظام نفسه الذي نتبعه نحن في تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه، وكل ما يصنع فيها يعمل قطعة قطعة، ومعمل القلعة يضارع أحسن معامل الأسلحة في فرنسا من حيث الإحكام والجودة والتدبير»[٣].

---

(١) «مانجان» ج٣، ص١٣٣.

(٢) هامش الطبعة الثالثة. وعلى إثر انفجار وقع في أحد هذه المخازن أنشأ شرقي (أثر النبي) بمصر القديمة مخازن أخرى للبارود (جبخانة) على سفح الجبل لا يزال بناؤها قائمًا إلى الآن (١٩٥٠م).

(٣) «رحلة المارشال مارمون» ج٣، ص٢٨٣.

إبراهيم أدهم باشا

تقدم القول بأن «أدهم بك» (باشا) كان في مقدمة الضباط الأكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية، وأنه تولى إدارة المهمات الحربية، وأسس دار صناعة (ترسانة) القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع.

و«أدهم بك» هذا هو من خيرة رجال محمد علي، ومن أصدق من بذلوا جهودهم في تأسيس الجيش النظامي، وهو أيضًا ممن حملوا لواء نهضة التعليم في مصر؛ فقد تولى إدارة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية) عشر سنوات ونيفًا.

وقد ذكره العلامة «علي باشا مبارك» فقال عنه: إنه «كان من أشهر رجال الحكومة، صادقًا في القيام بوظائفه مع الاجتهاد».

وذكر عن ترجمته ما خلاصته[١] أن أصله من الأستانة، ثم استوطن مصر في عصر محمد علي باشا حين تأليف الجيش النظامي، فجعله ضابطًا في المدفعية، وكان ملمًّا باللغات الفرنسية والعربية والتركية والتشكيلات العسكرية، وتنظيم المهمات، وقد جعله محمد علي ناظرًا للمهمات الحربية[٢] «فبذل فيها جهده وحمدت مساعيه»، وأقام بهذه الوظيفة زمنًا، ثم ترقى إلى رتبة أميرالاي، وكان يتلقى عنه الهندسة جماعة من رجال الحكومة مثل «إبراهيم بك رأفت» وكيل ديوان المدارس، و«مصطفى راسم» مدرس الهندسة بمدرسة القصر العيني، و«حسن أفندي الغوري» مدرس الهندسة بمدرسة المدفعية بطره.

وقد وشى في حقه أحد حساده سنة (١٢٤٩هـ) وأوغر عيه صدور رؤسائه، ففصل عن وظيفته، وأقيمت عليه قضية استمرت نحو ثمانية أشهر وظهرت براءته

(١) «الخطط التوفيقية» ج١٢، ص٥.

(٢) جاء في العدد (٤٣٢) من «الوقائع المصرية»: أنه أمير اللواء أدهم بك مفتش المهمات الحربية.

منها، وكان خلال ذلك لا يفتأ يؤدي واجبه نحو البلاد ببذل النصح والإرشاد إلى من يقصدونه من محبي العلم.

قال «علي باشا مبارك» في هذا الصدد: «وكان المعلمون في الورش يحضرون إليه في منزله ويستفهمون منه عن العمل في البنادق والمدافع ونحو ذلك، وهو يفيدهم بجد واجتهاد؛ رغبةً منه في خدمة الديار المصرية».

ولما عاد إبراهيم باشا من الحرب السورية سنة ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) أثنى عليه عند محمد علي باشا وذكر نصحه واجتهاده في خدمته؛ فأنعم عليه برتبة أمير لواء، وأعيد إلى وظيفته، وبعد وفاة مصطفى مختار بك أضيفت إليه شئون المدارس؛ فصار مدير ديوان المدارس (وزير المعارف العمومية)، وتولى هذا المنصب نحو عشر سنوات (١٨٣٩-١٨٤٩م).

وفي زمن عباس باشا الأول تولى وزارة المعارف بضعة أشهر (أكتوبر سنة ١٨٤٩- مايو سنة ١٨٥٠م)، ثم نقل مديرًا للمهمات الحربية، وجعل له نظر أوقاف الحرمين الشريفين، وأنعمت عليه الحكومة جزاء خدماته بأرض مساحتها (٨٥٠) فدانًا في جهة (سرباي) بمديرية الغربية.

وفي زمن سعيد باشا جعل (محافظ مصر) وأنعم عليه بالباشوية، فصار يعرف بأدهم باشا وأحيل عليه قلم الهندسة مع المهمات الحربية.

وتولى من جديد في عهد إسماعيل باشا وزارة المعارف العمومية عدة أشهر (يناير، يولية سنة ١٨٦٣م) ثم اعتزل الخدمة، وكانت وفاته سنة (١٨٦٩م).

قال عنه «علي باشا مبارك»: «وكان رقيق القلب، رحيمًا، كثير الصدقة، يباشر المصالح بنفسه بلا تعاظم ولا تكبر، ويلاطف أصحاب الحاجات حتى يقف على حقيقة شكواهم، ويقوم بنصرة المظلوم، واعتنى بالمدارس واجتهد في أسباب الرغبة فيها، فكان يجلُّ المجدين من التلامذة والمعلمين، ويسعى في ترقيتهم ليجتهد غيرهم،

فظهرت النجابة في جميعهم أو أكثرهم، وحصلوا في وقته تحصيلًا جمًّا، ومن إنشائه مكتب (مدرسة) السيدة زينب رضي الله عنها، ومكتب بولاق ومكاتب أخرى، وبالجملة فكان كالوالد لأبناء المدارس، وله إصلاحات أيضًا بالجامع الأزهر زمن نظارته على الأوقاف».

وقد التقى به المارشال «مارمون» خلال زيارته لمصر وأعجب به وبكفاءته، فقال عنه: «إنه تعلم اللغة الفرنسية بقوة إرادته على غير أستاذ، وأنه يتكلمها بلهجة صحيحة، وتبحر في الرياضيات، وفنون المدفعية، وصار في نظري يضارع أحسن ضباط المدفعية وأكفأ مديري مهماتها، وهو من أقوى من عرفتهم في حسن الإدارة، وأن اختيار محمد علي لمثل هذا الرجل لمعاونته لدليل على صدق نظره وفراسته وحسن توفيقه في اختيار رجاله»[١].

مصنع البنادق في الحوض المرصود

لم يكتف محمد علي بمصنع البنادق في القلعة؛ بل أنشأ في الحوض المرصود حوالي سنة (١٨٣٢م) معملًا آخر لصنع البنادق، وكان من قبل معدًّا للنسيج. وقد تكلم عنه المسيو «مانجان»[٢] فقال: إن محمد علي عهد بإدارته إلى رجل إيطالي من (جنوه) يسمى المسيو «مارنجو»، وقد تسمى باسم علي أفندي، قال عنه: «وقد اكتسب خبرته بعمله في ترسانة القلعة تحت إمرة أدهم بك، وقد اشتغل بجد وعزيمة، وتخرج على يديه طائفة من الصناع مهروا في صنع البنادق على اختلاف طرازها».

وبلغ عدد عمال الحوض المرصود (حوالي سنة ١٨٣٧م) (١٢٠٠) بين صناع ورؤساء عمال يصنعون في الشهر نحو (٩٠٠) بندقية من مختلف الأنواع والأشكال؛ فمنها ما هو للمشاة، ومنها ما هو للفرسان وللطوبجية على الطراز المتبع في الجيش الفرنسي، وكذلك الحال في معامل القلعة.

---

(١) «رحلة الدوق دي راجوز» (المارشال مارمون) ج٣، ص٢٨٣.

(٢) «مانجان» ج٣، ص١٢٣.

ومتوسط ما تتكلفه البندقية أربعون قرشًا؛ أي بأزيد مما تتكلفه البندقية التي تصنع بترسانة القلعة بثمانية وعشرين قرشًا. وقد سأل المسيو «مانجان» عن سبب هذا الفرق، فقيل له: إن ذلك راجع إلى الفرق في عدد العمال وكمية الفحم والحديد في كلا المصنعين. على أنه لم يقنع بهذا السبب.

وكانت تعمل تجربة للمدافع في كل أسبوع، وقد لاحظ المسيو «مانجان» أن الحديد الذي كانت تصب منه المدافع التي شاهدها سنة (١٨٣٧م) من نوع غير جيد، فكانت النتيجة أن يستغني عن خمس عدد المدافع المصنعة؛ لأنه لم يحتمل التجربة، قال: وإذا كان الحديد من النوع الجيد الواجب استعماله لا تتجاوز الكمية الملغاة منه السدس.

ويقول: إن البنادق التي تصنع في معامل القلعة والحوض المرصود كانت صناعتها جيدة، ولا يستطيع الإنسان أن يلحظ عيبًا في صناعتها إلا إذا كان على خبرة بسر الصنعة، والعيوب آتية على الأرجح من نوع الحديد لا من عدم مهارة الصناع.

وقد ذكر المارشال «مارمون» في رحتله[1] أنه شاهد مصنعًا ثالثًا للأسلحة في ضواحي القاهرة، وأن المصانع الثلاثة تصنع في السنة (٣٦) ألف بندقية عدا الطبنجات والسيوف.

معامل البارود

وأقيم معمل للبارود في المقياس بطرف جزيرة الروضة، وكان بناؤه فسيحًا ومناسبًا وبعيدًا عن المساكن، وقد تولى إدارته المسيو «مارتل» MARTEL الذي كان من قبل مستخدمًا في معمل البارود بمدينة سان شاماسSAINT CHAMAS وتولى العمل تحت إدارته تسعون عاملًا موزعين على أقسام المعمل، منهم (١٨) عاملًا يشتغلون في خلط الكبريت والفحم وملح البارود و(٢١) عاملًا يشتغلون في تقليب البارود في

(١) ج٣، ص٢٨٤.

الطواحين وعددها عشرة، ولك طاحون عشرون مدقة، تحركها عشر آلات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال، وأربعون عاملًا يشتغلون في صنع الرش ويصنع من كل يوم (٣٥) قنطارًا.

وكان يصنع البارود بطريقة التبخير، وهذة الطريقة أوفر من طريقة النار.

وقد تعددت معامل البارود في مصر وكانت تسمى (كهرجالات)، وهاك أسماؤها ومقدار الناتج منها سنة (١٨٣٣م)[١].

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطارًا
// البدرشين[٢]	// ١٦٨٩
// الأشمونيين	// ١٥٣٣
// الفيوم	// ١٢٧٩
// أهناس	// ١٢٥٠
// الطرانة	// ٤١٢
	١٥٧٨٤ الجملة

ملابس الجند ومرتباتهم

وصف «كلوت بك»[٣] ملابس الجند في عهد محمد علي فقال: إنها غاية في البساطة، تتألف بالنسبة للجنود من الطربوش الأحمر، وصدار، وبنطلون، وهو يشبه

(١) «مانجان» ج٣، ص٢٢٤.

(٢) ذكر العلامة «علي باشا مبارك» بالجزء التاسع من «الخطط التوفيقية» ص١٤ في كلامه عن البدرشين ما يأتي: «وفي جهتها البحرية معمل بارود من زمن العزيز محمد علي مستعمل إلى قبيل تولية الخديوي محمد باشا توفيق كانت تجلب له الأسباخ من منية رهينة وتلول مصر العتيقة».

(٣) «لمحة عامة إلى مصر» ج٢، ص٣٣١ (٣٢٣ الأصل الفرنسي).

السروال الواسع يشد بتكة على الوسط، ويربط على الركبة برباط الساق (القلشين) ويتمنطق الجنود على خواصرهم بحزام، وملابسهم في الشتاء من الجوخ، وفي الصيف من قماش القطن السميك، أما الفرسان ورجال المدفعية والحرس فيلبسون في الشتاء صدارًا أزرق اللون، وغيرهم يلبس صدارًا أحمر، ويرتدي رجال الجيش جميعهم في الصيف الملابس البيضاء، ويحتذون بأحذية من الجلد الأحمر (مراكيب).

ولا يختلف رداء الضباط عن رداء العساكر؛ إلا في نوع الجوخ وما يزينه من التطريز، واللون الأحمر يميز الضباط عن سواهم، أمَّا الشارات التي تميز بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم؛ فهي كما يلي:

يحمل الأونباشي شريطًا واحدًا على الصدر، والجاويش شريطين، والباشجاويش ثلاثة، والملازم الأول يحمل على صدره من ناحية اليمن نجمة فضية، واليوزباشي نجمة وهلالًا فضيين، والصاغ هلالًا من الذهب ونجمة فضية، والبكباشي هلالًا ونجمة من الذهب، والقائمقام هلالًا من الذهب ونجمة من الماس، والأميرالاي هلالًا ونجمة من الماس، وأمير اللواء نجمتين في هلال كلها من الماس، والفريق (الميرميران) ثلاث نجوم في هلال كلها من الماس.

ويقول «كلوت بك» أيضًا: إن عطاء (مرتب) الجندي البسيط (١٥) قرشًا في الشهر، ومرتب الأنباشي (٢٥) قرشًا، والجاويش (٣٠) قرشًا، والباشجاويش (٤٠) قرشًا، والصول (٦٠) قرشًا، والملازم الثاني (٢٥٠) قرشًا، والملازم الأول (٣٥٠) قرشًا، واليوزباشي (٥٠٠) قرش، والصاغ (١٢٠٠) قرش (١٢ج)، والبكباشي (٢٥٠٠) قرش (٢٥ج)، والقائمقام (٣٠٠٠) قرش (٣٠ج)، والأميرالاي (٨٠٠٠) قرش (٨٠ج)، وأمير اللواء (١١٠٠٠) قرش (١١٠ج)، والميرميران (١٢٥٠٠) قرش (١٢٥ج).

ومرتبات كبار الضباط جسيمة كما ترى مما تقدم، وقد لاحظ «كلوت بك» أن السبب في ذلك أن محمد علي باشا أراد استمالة الأتراك إلى النظام الحديث على إثر ما

أبدوه من النفور الشديد منه؛ فضلًا عن أن الرؤساء في الجيش تدعوهم طبيعة مراكزهم إلى بسط اليد بالنفقة.

الإدارة الحربية

أنشأ محمد علي نظارة للحربية كانت تعرف بديوان الجهادية، عهد إليها قيادة الجيش وإدارة شئونه، وناط بها جميع ما يجلب للجيش من سلاح ومهمات وثياب، وهي التي تجلب من مخازن الحكومة ما يلزمه من الذخائر والمؤن والأدوية وما إليها.

وقد نظمت الجيوش المصرية على نمط الجيوش الفرنسية، وكذلك إدارتها الصحية، وبكل أورطة العدد اللازم من الموظفين والأدوات لإقامة المستشفيات الخاصة بالأورط.

الروح الحربية

إنَّ تأليف الجيوش النظامية والمران على الحياة العسكرية وخوض غمار القتال، كل ذلك مما قوَّى الروح الحربية في نفوس الشعب.

صحيحٌ أن المصريين لم يعتادوا الانتظام في سلك الجيش منذ الفتح العثماني؛ ولكنهم لم يفقدوا الروح الحربية في عهد المماليك، اعتبر ذلك بالمقاومة المستمرة البعيدة المدى التي قام بها المصريون قاطبة في وجه الحملة الفرنسية، مما بسطنا الكلام عنه في الجزء الأول والثاني من تاريخ الحركة القومية، وهم وإن كانوا لم يألفوا الاندماج في سلك الجيوش النظامية ولم يقبلوا على التجنيد الذي رسم محمد علي قواعده طائعين، بل سيقوا إليه مكرهين؛ إلا أن الفلاحين الذين انتظموا في سلك الجيش ما لبثوا كما قلنا أن رأوا في حياة الجندية نظامًا أرقى من حياتهم الفردية، فأخذوا يألفونه مع الزمن، وقد أفادهم الفوائد العظيمة، فلا يغرب عن البال أن تنظيم الجيش كان له آثار بعيدة المدى في حالة البلاد السياسية والاجتماعية، فإن تأليف جيش قومي

خاض غمار الحروب في ميادين عدة من شأنه أن يغرس في النفوس فكرة القومية؛ إذ هو نفسه جسم هذه الفكرة.

قال المسيو «مانجان» في هذا الصدد: «إن محمد علي بهدمه الجيش غير النظامي، وتجنيده الفلاحين على النظام الأوربي قد أكسب شعبه تقدمًا عظيمًا، ورد إلى مصر قوميتها».

ويقول «كادلفين وبارو» في كتابهما[١]: «إنَّ العرب (يريد المصريين) من سكان وادي النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثماني حق الانتظام في الجيش، ولكن محمد علي قد أعاد إليهم هذا الحق، وهو بتجنيدهم -ولو أن ذلك كان على كره منهم- قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوهدة التي نزلوا إليها، وقد استردوا سمعتهم بما أظهروه من الشجاعة في ميادين الحروب التي خاضوها».

ولا شك في أن انضواء الجنود والضباط تحت علم الجيش مما يعودهم حب النظام، والنظام هو من العوامل الرئيسية لارتقاء الأمم وتقدمها، فليس ثمة نهضة من غير أن يكون النظام رائدها. وكذلك من خصائص الحياة العسكرية أن تبث الشجاعة في نفوس الأمة وتغرس فيها مبدأ افتداء الوطن بالنفس والنفيس، ذلك المبدأ الذي هو من أقوى دعائم الاستقلال والحرية، فالروح الحربية المصرية قد تجلت تحت راية الجيش النظامي وساعدت على تأليفه، كما أن تكوين الجيش نفسه كان له أثر فعال في نمو تلك الروح وبروزها واكتمالها.

هذا فضلًا عما فطر عليه المصري من الإيمان والقناعة والطاعة، والصبر على المكاره، والاطمئنان إلى قضاء الله وقدره. كل هذه الصفات جعلت من الفيالق المصرية النظامية جيوشًا ضارعت أرقى الجيوش الأوربية في الدربة والكفاية والشجاعة، ولقد برهنت على هذه المزايا في ميادين القتال التي خاضت غمارها.

---

(١) «حرب محمد علي ضد الباب العالي» ص٥٦.

شهادة الثقات للجيش المصري

ويكفيك أن تقرأ في هذا الصدد شهادة الثقات لتزداد اعتقادا بصحة هذه الحقائق.

رأي سليمان باشا الفرنساوي

فقد شهد البارون (بوالكونت) الجيش المصري في سورية سنة ١٨٣٣ وقابل الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) فقال له يصف الجنود المصريين:

((إن العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيتهم من الجنود، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان، وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الشد والغناء، ولقد رأيتهم في معركة (قونيه) يبقون سبع ساعات متوالية في خط النار محتفظين بشاجعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسري إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير في واجباتهم وحراكاتهم الحربية»[١].

رأي كلوت بك

وقال كلوت بك في كتابه[٢]:

«ربما يعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود[٣]؛ لأنهم على الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة على العمل، واحتمال المشاق، ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر، والشجاعة، والثبات عند الخطر، والتذرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن، والإقدام على المخاطر، والاتجاه إلى خط النار وتوسط معًا مع القتال بلا وجل ولا تردد».

---

(١) «رسائل البارون بوالكونت» ص٢٤٠.

(٢) «لمحة عامة إلى مصر» ج٢، ص٢٢٦ (الأصل الفرنسي).

(٣) Les Arabes Sont Peut ctre les hommes les plus propres a devenir de bons soldats.

وذكر «كلوت بك» حوادث عدة تأييدًا لتلك الحقيقة، وقال: إنه يكتفي منها بالحوادث الآتية:

حدث في معركة (حمص) أن جنديًّا من الأورطة السابعة من الفرسان يدعى (منصور) فصلت ذراعه من جسمه بقنبلة، فأبى وهو في هذه الحالة التراجع عن ميدان القتال؛ بل تقدم رجال كتيبته حاملًا على العدو بأشد البأس وأروع البسالة، وظل يحارب إلى أن مات(١).

وحدث في معركة (قونية) أن ترك جميع الجرحى القادرين على حمل السلاح أسرتهم في المستشفى ونفروا إلى ميدان القتال؛ ليشاطروا إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت.

وفي تلك المعركة سقط جندي من الأورطة الرابعة من الفرسان عن ظهر جواده مجروحًا، فلما شهده أمير لوائه أحمد المنكلي بك دفع إليه جواده ليرجع به إلى الساقة، فأبى الجندي قائلًا: إنه يفضل البقاء في ميدان القتال ليشهد إخوانه منتصرين ولو لقي الموت(٢).

وفي إحدى المعارك أصيب شاب يحمل النفير من جنود الأورطة الخامسة عشرة بجرح، ورأى أن رفاقه في فصيلته قد هزمهم العدو وشتتهم، فعلى الرغم من خطورة جرحه واحتدام نار القتال لم يكف عن النفخ في بوقه بإشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم، ولم يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء، ولما شاهد زملاؤه الفارون فعله عراهم الخجل من رؤيته وهو فتى صغير يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة فحمي دمهم وتوافى بعضهم إلى بعض، ثم كروا إلى القتال ليثأروا لشرفهم الذي ثلمه العدو لحظة من الزمن.

---

(١) ذكر «كادلفين وبارو» هذه الحادثة في كتابهما «حروب محمد علي ضد الباب العالي» ص١٨٩ ونقلها عنهما كلوت.

(٢) ذكر «كادلفين وبارو» هذه الحادثة ص٣١٣.

ثم ذكر «كلوت بك» حادثة أخرى قال عنها: إنها من أهم الحوادث وأخصها بالذكر، وهي أن سليمان باشا الفرنساوي كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت إليه حديثًا، فوقع نظره على فتى ضاوٍ نحيل في السادسة عشرة من عمره يدعى الحاج علي، فهم سليمان باشا أن يرده معترضًا بأنه لا يصلح أن يكون جنديًّا كفئًا، فأبى (الحاج على) إلا أن يبقي في السلاح قائلًا لسليمان باشا أن الحكم عليه إنما يكون في عمله ومتى سنحت الفرصة تبين الحكم، فلما ضرب الجيش المصري الحصار على (عكا) خرجت الحامية يومًا فاستظهرت على المشاة المصريين وردت جنود الأورطة الثامنة المقاتلة في الجبهة على أعقابها، فتقدمت الأورطة الثالثة من الفرسان التي كان (الحاج علي) منتظمًا في سلكها لتعزيز جانب أولئك الجنود، وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصورين وألجأتهم إلى مواقعهم، ولم يكتف الحاج على أن شاطر رفاقه مجد فوزهم؛ بل أنقذ بيده يوزباشيًّا كان على وشك الوقوع في أسر العدو، ثم انقض على ضابط تركي فأسره، وجاء بالضابطين المصري والتركي إلى سليمان باشا وقال له: «أفترى أنني جندي لا أصلح لشيء؟».

قال «كلوت بك»: وكان الأتراك لما يشعرون به من الغطرسة والكبرياء ينظرون بعين الزراية إلى المصريين، ولا يكترثون بهم ويعتقدون فيهم العجز عن مجاراتهم؛ ولكن حرب (الموره) أثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الحي المنكمش الذي أرهقه الضغط والعسف قدير على استرداد مجده القديم وأهل لمنازعتهم فخر النجاح والفوز في القتال، ولقد أثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و(بيلان) و(قونية)[1] تفوقهم عليهم باعتبار كونهم أفرادًا، كما أثبتت كفايتهم باعتبارهم مجموعًا إذا وجدوا القيادة الصالحة.

ولكن «كلوت بك» لاحظ أن المصريين لم يكن لهم نصيب في القيادة، ومع أنه أطراهم بوصف كونهم جنودًا فإنه يقول: إنهم لم يضطلعوا بالمهام التي اقتضتها مراكز

(١) ونصيبين.

القيادة في الجيش، وبرر عمل محمد علي في إقصائهم عن المراتب السامية في الجندية وإسنادها إلى الأتراك والمماليك، بقوله:

«إنهم في المراتب العالية لا يقدرون كرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها؛ فهم يغايرون العثمانيين والمماليك في الأهلية للقبض على زمام القيادة، وسرعان ما يتحولون إلى عاداتهم القديمة بما اضطر محمد علي باشا وابنه إبراهيم على الرغم منهما إلى الكف عن ترقيتهم وترفيعهم إلى المراتب السامية في الجندية، ومن هذا النقص، أسندت إلى المماليك والأتراك في الجيش المناصب العليا».

هذا ما قاله «كلوت بك»، ولم يذكر لنا تفصيل التجربة التي جربها محمد علي باشا في إسناد المراتب العالية في الجيش للمصريين والتي ظهر فيها عدم أهليتهم، وأغلب الظن أنه لم يجربها أصلًا حتى يقام لهذا الرأي وزن، ولو أنه عوَّد المصريين تقلد المناصب الرئيسية في الجيش لاضطلعوا بها ولظهرت فيها كفايتهم ومقدرتهم مع الزمن والممارسة، هذا فضلًا عن أن رأي كلوت بك في هذه المسألة ليس له كبير اعتبار؛ لأنَّ المماليك والأتراك قد اندمجوا في الكتلة الوطنية كما سيجيء بيانه.

رأي المارشال «مارمون»

على أن المارشال «مارمون» يبدي في رحتله رأيًا يتعارض ورأي «كلوت بك» في هذا الصدد؛ فقد ذكر أن مناصب ضباط الجيش كانت في مدى سنوات عدة تسند إلى الترك والمماليك؛ لأن محمد علي لم يشأ بادئ الأمر أن يستسلم للأهلين ويجعل نفسه تحت رحمتهم، ولكن لما رسخت سلطتة واطمأن إلى إخلاص الجيش بدأ يسند مناصب الضباط إلى العرب فبرهنوا على ذكاء وافر ونشاط كبير، والذين ارتقوا من بينهم إلى سلك الضباط صاروا أحسن وأكفأ من الترك، والآن -سنة ١٨٣٤م- لم يعد

يعترض تقدمهم في المناصب العسكرية أي مانع، وانفتح أمامهم سبيل المراتب العالية[١].

وقد شهد المارشال سنة (١٨٣٤م) فيالق الجيش المصري على اختلاف وحداتها وأطنب في صفاتها الحربية وأعجب بكفاءتها وحسن نظامها، فقال عن المشاة[٢]:

«كان لواء المشاة المؤلف من الألاي التاسع والألاي العشرين في طريقه إلى السويس للإبحار منها إلى الحجاز لنجدة الجيش المصري فيه، وعرضت بنفسي هذا اللواء، فقام أمامي بمناورات دامت ثلاث ساعات في سهل (القبل)، فأعجبت به أيما إعجاب، وإذ كان عساكره في مقتبل السن وحديثي عهد بالانتظام في صفوفه فقد لاحظت مبلغ تأثير القائد الأعلى للجيش في تشكيله ونظامه، والحق أن العساكر الذين عرضتهم يجمعون إلى الدقة والنظام، الدراية بالفنون العسكرية، وقد رأيت في قائد اللواء وضباطه دلائل العلم والكفاءة، وشهدت أيضًا الألاي السادس من الفرسان ولم يكن مضى على جنوده في الخدمة أكثر من عشرة أشهر؛ ومع ذلك رأيتهم فيما عدا بعض ملاحظات طفيفة يستحقون كل الثناء»[٣].

وقال عن جنود المدفعية الذين يتمرنون في مدرسة المدفعية بطره: «قامت أورطة المدفعية الراكبة أمامي بمناورات تدل على المهارة والنشاط والنظام والدقة، وكانت مؤلفة من ستة بلوكات رجالها على ما يرام من الجمال والتعليم ونظام الحركات العسكرية، كما أن مركبات المدافع متقنة منتظمة رغم كون الجياد التي تجرها صغيرة الجسم شأن خيل القطر المصري، ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزًا حسنًا، أكفأ في الرماية، يصيبون الهدف بدقة وسرعة، فالمدفعية المصرية جامعة لشروط

(١) «رحلة المارشال مارمون» ج٣، ص٢٩٣.

(٢) «رحلة المارشال مارمون» ج٣، ص٢٩٤.

(٣) «رحلة المارشال مارمون» ج٣، ص٢٩٥.

الكفاية، تضارع مدفعيات الجيوش الأوربية، وأميرالايها رجل كفء ممتلئ نشاطًا وغيرة.

أمَّا أورطة المدفعية المشاة فتتألف من (١٨) بلوكًا، وقد قامت بمناوراتها فكانت مدافعها تصيب الهدف بإحكام، أما مدافع الهاون فهي أقل ضبطًا وإحكامًا، ولا يسع المشاهد لهذه المدفعية إلا الإعجاب بالقوة التي حولت الفلاحين إلى جنود على جانب عظيم من الكفاءة»[١].

رأي المسيو «مريو»

وقد احتفظ الجيش المصري بسمعته بعد انقضاء عصر محمد علي وبعد أن تناقص عدده، فقد أحسن المسيو «مريو»[٢] الذي جاء مصر في عهد سعيد باشا الشهادة في حقه بقوله:

«إن كفاءة الفلاح المصري في فهم النظام الحربي واتباعه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة في مواجهة الأعداء كل هذه الميزات قد قامت عليها البينات لا في ميادين القتال بجزيرة العرب وسورية في عصر محمد علي فحسب؛ بل بحسن دفاع الجيش المصري عن سلستريا في حرب القرم الأخيرة».

القلاع والاستحكامات

عني محمد علي عناية كبيرة بإقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن ثغور البلاد وعاصمتها، فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة، وشحنها بالمدافع، وبنى على مقربة منها قلعة أخرى على ذروة المقطم تعرف بقلعة (محمد علي) وتشرف على الأولى، وأصلح قلاع الإسكندرية وأنشأ غيرها، واستدعى من فرنسا لهذا الغرض مهندسًا حربيًّا في فن الاستحكامات يسمى المسيو «جليس» GALICE وأنعم عليه برتبة

(١) «رحلة المارشال مارمون» ج٣، ص٢٨٥.

(٢) في كتابه «مصر الحديثة» من سنة ١٨٤٠ إلى ١٨٥٧م.

البكوية فصار يعرف بجليس بك، وعهد إليه اختبار سواحل مصر ووضع مشروع لحصونها واستحكاماتها، وجعله باشمهندس الاستحكامات.

ولكي تعرف مبلغ عناية محمد علي بالدفاع عن مصر نورد هنا إحصاء ذكره إسماعيل باشا سرهنك[١] عن كشف قديم من أوراق حسن باشا الإسكندراني مدير ترسانة الإسكندرية، يتضمن عدد قلاع الإسكندرية وأبو قير والبرلس ورشيد ودمياط وعدد ما بها من المدافع سنة (١٨٤٨م) أي السنة التي تولى فيها إبراهيم باشا حكم مصر.

حصون الإسكندرية

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
طابية قايتباي (أو قلعة برج الظفر)	١١٠	٦	١
// الأطة	٥٧	٧	٢
// الفنار	٥٧	٦	٢
// الفنار الصغيرة	١		١
// التراب (وتسمى الهلالية)[٢]	٦١	١٢	٣
// الاسبتالية الجديدة	١٣	١٠	١
// الاسبتالية القديمة	٢٥		١
// ظهر منزل الفرنسيس	٦	٦	١
// المفحمة	٨		١

(١) في كتابه «حقائق الأخبار عن دول البحار» ج٢، ص٢٥٩.

(٢) محلها الآن (سنة ١٩٣٠م، الطبعة الأولى) حلقة السمك بالأنفوشي.

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
// مسلة فرعون[١]	٩	١	
// قبور اليهود القديمة	١٠		١
// قبور اليهود الجديدة	٢٠		١
// برج السلسلة	١٨	١	١
// باب شرقي[٢]	٦		
// كوم الناضورة	١٠	١	١
// الدخيلة	٣		١
// السلمية[٣]	٢٠	٢	١
// المكس	٤٠	٩	١
// القمرية[٤]	٩	١	١
// أم قبيبة (كبيبة)[٥]	٥٦	٤	٢
//الملاحة القديمة	١٤	١	١
// الملاحة الجديدة	٣٤	١	١
صالح أغا[١]	١٣		٢

(١) مكانها الآن المستسفي الأميري.

(٢) موجود بعض آثارها إلى اليوم في شارع باب رشيد.

(٣) بين المكس والدخيلة.

(٤) بالقباري.

(٥) بالقباري.

obeikan.com

أسماء الحصون	مدافع	أهوان	جبخانة
// باب سدرة	٨		١
// كوم الدماس[٢]	٩	٢	١

حصون أبو قير

قلعة أبو قير	٤٨	٣	٢
طابية كوم الشوشة	٤٧	٣	١
// كوم العجوز	٢٤	٢	١
// السد نمرة (١)	١٠		١
// السد نمرة (٢)	١٠		١
// السد نمرة (٣)	١٠		١
// السد نمرة (٤)	١٠		١

حصون رشيد

طابية التني	٦		١
// العباسي	٦		١
// الطوجنية	٥		١
// المنزلاوي	٣		

(١) المعروفة الآن بطابية صالح بالقباري.

(٢) بجوار «مسجد النبي دانيال» وتضاف إلى حصون الإسكندرية طابية العجمي بجزيرة العجمي، فقد كانت موجودة في عهد محمد علي.

obeikan.com

طابية محل الشركة	١		
// برج رشيد	١٤		
// قلعة البوغاز	١٨		١
الطابية الشرقية	١٠		١
// الغربية	١٠		١

البرلس

قلعة البرلس	٦		١

حصون دمياط

القلعة القديمة	٢٠		١
الطابية الشرقية	١٠		١
// الغربية	١٠		١

إحصاء الجيش المصري في عهد محمد علي

كان الجيش المصري مؤلفًا في أوائل حكم محمد علي من نحو (٢٠٠٠٠) من المقاتلة، جميعهم من الجنود غير النظاميين (باشبوزق)، فلما أدخل النظام الحديث في الجيش واتبع طريقة التجنيد على ما مر بك بيانه تألف الجيش النظامي وصار يضارع في قوته وعدده وكفايته أحدث الجيوش الأوربية.

إحصاء سنة (١٨٣٣م)

جاء البارون «بوالكونت» BOISLECOMTE إلى مصر منتدبًا من الحكومة الفرنسية في مهمة سياسية لدى محمد علي باشا، وله عن مهمته رسائل مطولة طبعت أخيرًا في

كتاب مستقل[١]، وقد استقصى أحوال مصر في ذلك العصر، فذكر عن الجيش أنه تلقى بيانًا من محمد علي نفسه عن عدده تلك السنة (١٨٣٣م)، ومن هذا البيان الرسمي يتضح أنه يتألف من (١٩٤٠٣٢) من المقاتلة، بما فيهم (٢٥,١٤٣) من البحارة وعمال الترسانات البحرية. فيكون مجموع جنود البر (١٦٨٨٨٩) جندي موزعين بحسب الإحصاء الآتي:

٢٢ ألايا من المشاة وعددهم	٧٠٣٣٧	جندي
ألايات من الطوبجية	٦٣٥٧	جندي
١٣ ألايا من الفرسان النظاميين	٧٩٦٢	جندي
فرقة الهندسة	٣٩٤٢	جندي
الفرسان غير النظاميين	٣٤٣٥	جندي
البدو	٥٣٧٠	جندي
طلبة المدارس الحربية	٣٤٨٨	جندي
الرديف ورجال الشرطة	٦٧٩٩٨	جندي
مجموع جنود البر سنة (١٨٣٣م)	١٦٨,٨٨٩[٢]	

إحصاء سنة (١٨٣٩م)

وقد بلغ الجيش المصري أوجه من جهة العدد سنة (١٨٣٩م) وقد اعتمدنا في إحصاء هذه السنة على ما أورده الدكتور «كلوت بك» في كتابه «لمحة عامة إلى مصر»،

(١) «مهمة البارون بوالكونت» من مطبوعات الجمعية الجغرافية.

(٢) «مهمة البارون بوالكوانت» ص١١٣. وهذا الإحصاء يختلف قليلًا عن إحصاء المسيو «مانجان» عن سنة (١٨٣٣م) في كتابه، ج٣ ص١٣٦؛ على أنه قريب منه.

وهو وإن اختلف عن إحصاء المسيو «مانجان» عن سنة (١٨٣٧م)[١] وزاد عنه، إلا أننا نعتقد أن «كلوت بك» لمكانته في الحكومة قد توفر له من وسائل التحقيق والتمحيص أكثر مما توافر للمسيو «مانجان».

ونتيجة إحصاء الدكتور «كلوت بك»[٢] أن الجيش المصري يتألف من الجنود الآتية:

١- جنود نظامية من مشاة وفرسان ومدفعية	١٣٠,٢٠٢	جندي
٢- جنود غير نظامية أو باشبوزق	٤١,٦٧٨	جندي
٣- الرديف	٤٧,٨٠٠	جندي
٤- عمال (الفابريقات) المدربون على القتال، وكانوا يقومون بالتمرينات العسكرية	١٥,٠٠٠	جندي
٦- طلبة المدارس الحربية المستعدون منهم للقتال	١,٢٠٠	جندي
مجموع جنود البر سنة (١٨٣٩م)	٢٣٥٨٨٠	جندي

(١) بحسب إحصاء مانجان (ج٣ ص١٤٠) عن سنة (١٨٣٧م) يكون العدد (١٥٩٣٠٠) مقاتل.
(٢) ج٢، ص٣٥١.

تفصيل للإحصاء المتقدم

١- الجنود النظامية

وهاك عدد الجنود النظامية، مع بيان الجهات التي يقيمون فيها:

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
الألاي الأول من طوبجية الحرس	حماة	١٣٧٢
الألاي الثاني من طوبجية المشاة	الإسكندرية	٢٣٤٩
الألاي الثالث من طوبجية المشاة	حلب	١٩٤٩
الألاي الأول من طوبجية الفرسان	حمص	٠٩٨٢
الألاي الثاني من طوبجية الفرسان	دمشق	١٠٠٧
أربع فصائل من طوبجية متفرقة	عكا	٣٣٧
الأورطة الأولى من المدفعية	الحجاز	٣٧٩
الألاي الأول من مشاة الحرس	عينتاب	٣٠٤٨
الألاي الثاني من مشاة الحرس	مرعش	٢٦٤٥
الألاي الثالث من مشاة الحرس	حلب	٢٤٣٥
الألاي الأول من المشاة (الأورطة الخامسة)	السودان	٤٥٤٧
الألاي الثاني من المشاة	عينتاب	٢٢٥١
الألاي الثالث من المشاة	اليمن	١٥٢٦
الألاي الرابع من المشاة	مرعش	٢٥٩٣

obeikan.com

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
الألاي الخامس من المشاة	أدنة (الأناضول)	٢٦٢٩
الألاي السادس من المشاة	كليس	٢٣٦٢
الألاي السابع من المشاة	الحجاز	٢١٩٢
الألاي الثامن من المشاة	السودان	٣٣٩٦
الألاي التاسع من المشاة	حلب	٢٣٠٤
الألاي العاشر من المشاة	حلب	٢٠٥٤
الألاي الحادي عشر من المشاة	أورفا	٢٣٣٨
الألاي الثاني عشر من المشاة	عينتاب	٢٣٢٦
الألاي الثالث عشر من المشاة	الحجاز	١٢٢٥
الألاي الرابع عشر من المشاة	حلب	١٩٨٨
الألاي الخامس عشر من المشاة	الدرعية (نجد)	٢٥٥٥
الألاي السادس عشر من المشاة	قنديا (كريت)	٣١٤٩
الألاي السابع عشر من المشاة	أورفا	٢٣٦٩
الألاي الثامن عشر من المشاة	عكا	٢٠٤٩
الألاي التاسع عشر من المشاة	الحجاز	٢٣٤٩
الألاي العشرون من المشاة	اليمن	٢٦٧٧

obeikan.com

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
الألاي الحادي والعشرون من المشاة	الحجاز	٢٣٦٣
الألاي الثاني والعشرون من المشاة	أورفا	٢٢١٢
الألاي الثالث والعشرون من المشاة	ينبع	٢٣٤٢
الألاي الرابع والعشرون من المشاة	أنطاكية	٣١٣١
الألاي الخامس والعشرون من المشاة	بيت المقدس	١٧٥٥
الألاي السادس والعشرون من المشاة	القاهرة	٣٣١٨
الألاي السابع والعشرون من المشاة	الجديدة (اليمن)	٢١٢٩
// الثامن والعشرون //	//	٢٤٤٦
// التاسع والعشرون //	أدنه	٣١٧٢
// الثلاثون //	حماه	٢٩٢٥
// الحادي والثلاثون //	حلب	٢٤٠١
// الثاني والثلاثون //	القاهرة	٣٣١٨
// الثالث والثلاثون //	الإسكندرية	٢٦٠٤

obeikan.com

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
// الرابع والثلاثون //	كليس	٢٥٦٤
// الخامس والثلاثون //	القاهرة	٢٣١٨
// الأول من فرسان الحرس	اللاذقية	٧٩٦
// الثاني من الحرس المدرعين	بيسان	٨٤٤
// الأول من الفرسان	أورفا	٨٢٥
// الثاني من الفرسان	زانبه	٨٣٠
// الثالث من الفرسان في الطريق إلى	الإسكندرية	٨٤٧
// الرابع من الفرسان	أدنة	٦٧٨
// الخامس من الفرسان	الإسكندرية	٨٣٢
// السادس من الفرسان	دمشق	٧٧٠
//السابع من الفرسان	طرسوس	٧٤٢
// الثامن من الفرسان	دمشق	٧١٢
//التاسع من الفرسان في الطريق إلى	الإسكندرية	٨١٦
// العاشر من الفرسان	عكا	٧٦٨
//الحادي عشر من الفرسان	كليس	٧٥٦
الألاي الثاني عشر من الفرسان	طرسوس	٦٦٢

بيان الجيوش	محل الإقامة	عدد الجنود
الألاي الثالث عشر من الفرسان	أورفا	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
الألاي الأول من البلطجية	عكا	٨١٢
الأورطة الأولى من المتقاعدين	الإسكندرية	٧٩١
أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
أورطة من المتقاعدين	دنقلة	٨٥٥
أورطة من فرقة المهندسين	أدليب	٧٥٨
أورطة من البلطجية	إسكندرية	٨٠٨
فصيلة من اللغامين	القاهرة	٩٤
الأساس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكًا من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	١٦٧١
رجال الألعاب النارية والسواريخ	مصر العتيقة	١٠٨٥
ألاي من حملة القرابينات حرس القائد إبراهيم باشا		١١٥٢
فصيلة من حملة القرابينات	الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين		٢٠٠
مجموع الجنود النظامية		١٣٠٢٠٢[1]

(١) صححنا بهذا الرقم عملية الحساب الواردة في «كلوت بك» ج٢ ص٢٣٢ (الأصل الفرنسي) كما صححنا عملية الحساب الواردة في كتاب البارون (بوالكونت).

٢- الجنود غير النظامية

في الحجاز

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	٤	١٥٨٠
مشاة أتراك	١	٣٩٥
فرسان مصريون	٩	٩٤٥
مشاة مصريون	٥	٣٣٩
مدفعية	-	٧٨٧
المجموع	١٩	٤٠٤٦

في القطر المصري

فرسان أتراك	١٠	٢٧٨٥
مشاة أتراك	٧	٢٧٧٥
فرسان مصريون	٧	١٦٦٠
مدفعية	-	١٢٩٩
المجموع	٢٤	٨٥١٩

في اليمن

فرسان أتراك	٥	١٩٧٠
مشاة أتراك	٩	٧٦٠
مدفعية	-	٢٠٠
المجموع	١٤	٢٩٣٠

obeikan.com

في قنديا (جزيرة كريت)

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	٢	٤٥٠
مشاة أتراك	٦	٢٤٠٥
مدفعية	–	٢٨٠
المجموع	٨	٣١٣٥

في المدينة المنورة

فرسان أتراك	٣	٣٠٢٠
مشاة أتراك	١٠	٣٧٥٠
مدفعية	–	٢٢٥
مصريون	١٦	١٢٢٥
المجموع	٢٩	٨٠٢٠

في السودان

فرسان أتراك	١٧	١١٧٠
فرسا مصريون	٤	١٢٨٠
مشاة مصريون	١٠	٩٥٠
مدفعية	–	١٨٦
المجموع	٣١	٣٥٨٦

obeikan.com

في سورية

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	١٤	٤١٢٥
مشاة أتراك	٥	١٩٣٠
فرسان مصريون	٦٣	٤٩٨٠
المجموع	٨٢	١١٠٣٥

فيكون مجموع الجنود غير النظامية كما يأتي:

ضباط	٢٠٧
عساكر	٤١٤٧١
المجموع	٤١٦٧٨

وكانت قبائل العربان في القطر المصري كقبائل «أولاد علي» والجمعيات والجوادي والهنادي وولد سليمان والزوفة وجهينة والهوارة والعبابدة والمعازة وغيرهم -كالمدد المدخر في الرجال والخيل والجمال وأسباب القتال. وكل ذلك تقدمه لأول إشارة من الحكومة.

٣- الرديف

الإسكندرية	ألايان	٦٨٠٠	جندي
البرلس ورشيد	ألاي واحد	٣٤٠٠	//
دمياط	//	٣٤٠٠	//
القاهرة	ثمانية ألايات	٢٧٤٠٠	//

مصر القديمة	ألاي واحد	٣٤٠٠	//
بولاق	//	٣٤٠٠	//
		٤٧٨٠٠	//

خلاصة الإحصاء المتقدم

جنود نظامية	١٣٠٢٠٢
جنود غير نظامية	٤١٦٧٨
رديف	٤٧٨٠٠
عمال الفابريقات	١٥٠٠٠
طلبة المدارس الحربية	١٢٠٠
مجموع جنود الجيش البري سنة (١٨٣٩م)	٢٣٥٨٨٠

obeikan.com